النشاط الاقتصادي في إفريقيا الشمالية قبل الاحتلال الروماني، قرطاجة أنموذجا.

أ/- فريد بوخلف
جامعة الجزائر 02

الملخص:
مقالنا هذا عبارة عن دراسة تاريخية تطرقنا فيها إلى النشاط الاقتصادي العام الذي كان يسود منطقة شمال إفريقيا في العصور السالفة للاحتلال الروماني بحيث اتخذنا من حالة قرطاجة أنموذجا، مع التركيز على النشاطات الرئيسية كالزراعة، الصناعة والتجارة، التي عرفت تطورا ملحوظ ربما استعجل بجلب أنظار المحتل نهبا لثرواتها.

الكلمات المفتاحية:
قرطاجة؛ الزراعة؛ الحبوب؛ الرومان؛ الصناعة؛ التجارة.

Résume:
Cet article est une étude historique consacrée à l’activité économique générale qui caractérisait l’Afrique du nord durant les siècles qui ont procédé l’occupation romaine. Pour cela nous avons pris Carthage comme exemple tout en insistant sur l’agriculture, l’industrie et le commerce qui ont connu un développement remarquable qui a probablement, attiré les regards de l’occupant qui a cherchaient à piller ces richesses.

Mots clés:
Carthage, L’Agriculture, Les céréales, Les Romains, L’industries, Le Commerce.

المقدمة:

عرف النشاط الاقتصادي في قرطاجة تطور ملحوظ في النشاط الزراعي، الصناعي والتجاري الذي شكل العمود الفقري لاقتصادها، إلا ان هذا التطور لم يأتي من الفراغ بل كان نتيجة تطور سابق يعود إلى تمكن الأفارقة من هذا النشاط منذ العصور القديمة السابقة للتواجد القرطاجي نفسه، ولهذا ارتأينا التعريج على هذه الفترة لفهم القواعد التي انطلق منها النشاط القرطاجي الذي بدوره لم ينتظر الوصول الروماني ليزدهر.

فما هي الوضعية الاقتصادية لشمال إفريقيا قبل الاحتلال الروماني؟

1-العصر القديم:

بالرغم من قلة المصادر الأدبية والأثرية التي تُحدثنا عن بداية الزراعة في شمال إفريقيا يضاف إلى ذلك ضبابية الآثار القليلة التي تم العثور عليها على شكل آثار جنائزية كالقبور والمغارات أغلبها ساحلية، فإن المتفق عليه من طرف الباحثين والمؤرخين أن الزراعة وتربية الماشية في شمال إفريقيا تعود إلى فترة موغلة جدا في القدم، بل ويرجعها البعض إلى العصر النيوليتي، وهو ما يؤكد عليه غزال كاستنتاج منه حول الرسوم الحجرية التي تؤرخ لهذه الفترة؛ فبالرغم من التناقض الشديد أحيانا بين المؤرخين حول تاريخ هذه اللوحات الصخرية فإن النبأ المؤكد منه هو ممارسة الإنسان الشمال الإفريقي للزراعة، الأمر الذي أشار إليه المصريون القدماء، أما محمد الهادي حارش[1]، فيرى أن أدوات الحضارة القفصية هو الدليل على بداية الفلاحة في شمال إفريقيا بحيث استدل على ذلك من خلال الأدوات الفلاحية التي تم العثور عليها في الجزائر والتي تعود للحضارة القفصية ومنها المناجل التي كانت تستخدم دون شك في جمع المحاصيل الزراعية وإن كانت من ثمار برية أو مزروعة.

وأما الرسوم الصخرية لكهف الأروية وقوش الأطلس الأعلى[2]، فإنهما تصوران مشاهد الحرث التي لا شك فيها أنها كانت على شيء من الانتشار بما أنها أثارت اهتمام الرسام الصخري في تلك الفترة، وأما المطرقة المستعملة لتهيئة الأرض فقد اكتشفت في عدة مغارات منها مغارة الأروية، مغارة بوزبوين[3]، واد الكرمة ومغارة العروية،

فتعطي لنا الصور الموجودة في مغارة الأروية صورة عن الحوادث الكاملة في تلك الفترة من حياة سكان شمال إفريقيا القدماء، والمتمثلة في: الكلب، المحراث ومجموعة بشرية[4].

ربما تعود زراعة الحبوب إلى فترة أقدم بكثير من الفترة التي حددها غزال ب 3000 ق. م، والدليل على ذلك اكتشاف حبات قمح تعود إلى سنة 6100 ق. م [5]، و 4850 ق.م وبينت الدراسات أنها من القمح المزروع في منطقة الصحراء الوسطى التي لا تخلوا جدران الطاسيلي من الرسوم التي تحمل الحياة اليومية لشعوبه الفلاحين من نشطات زرع وحصد، مطاحن، فؤوس وفخار، كلها أدوات تدل على قدم الزراعة في هذه المنطقة.

وتزودنا الرسوم الصخرية والأثاث الجنائزية والأثرية والمصادر الأدبية، وتعطينا فكرة عن عن قدم استغلال الإنسان في شمال إفريقيا للحيوانات الأليفة، فعرف عن سكان هذه المنطقة تربية المواشي والقنص في فترة موغلة في القدم، وهو ما لم يختلف عليه كل المؤرخين، أما فيما يخص المصادر الأدبية التي تحدثنا عن قدم الزراعة في شمال إفريقيا فإن الاختلاف وعدم اليقين هي سمتها، إذ اعتبر كامبس أن الآثار المكتشفة والتي تعود إلى العصر النيوليتي لا يمكن اعتبارها دليل قاطع على ممارسة الزراعة في تلك الفترة، في حين اعتبر غزال أن سكان الشمال الإفريقي عرفوا الفلاحة وتربية المواشي منذ فترة بعيدة، ولم ينتظروا قدوم البحارة السوريين حسب تعبيره[6]، وهو ما أكده من خلال ممارسة الزراعة الشجرية التي تحتاج إلى أكثر من ممارسة الزراعة الموسمية كزراعة الحبوب مثلا والتي لا تتطلب البقاء والاعتناء، فكان المزارعون الأوائل يقومون بزراعة الحبوب ويتركونها ولا يعودون إليها إلا في مواسم الحصاد، فيما هم ينتقلون بماشيتهم بحثا عن مناطق الرعي، وإنما الحال مختلف بالنسبة للزراعة الشجرية التي تتطلب الاعتناء الدائم وهو ما يفرض استقرار السكان ويؤكد لنا أن الكروم، الزيتون، التين والأشجار المثمرة المحلية كانت بصيغتها الغير مطعمة، هذا إذ سلمنا بأن الفينيقيين هم من ادخلوا التطعيم إلى المنطقة.

ويعتبر غزال كذلك أن البقوليات في حالتها البرية كالفول والحمص والعدس قديمة جدا؛ بحيث زرعت من طرف سكان شمال إفريقيا، ومهما قيل عن تأثرهم بالمصريين والفينيقيين فإن غياب الدليل القاطع عن مجيء هذه الأنشطة الفلاحية من الشرق، وعدم وجود أي أثر واضح عن عملية انتشارها، وإن رجح المؤرخون أصل زراعة القمح والشعير[7]، إلى منطقة شرق إفريقيا التي يحتمل أنها دخلت من آسيا، وخاصة أن منطقة بلاد الرافدين والهلال الخصيب المعروفة بمزاولة زراعة الحبوب منذ أقدم العهود إن لم تكن أول شعب مارس الزراعة فالمؤكد أنهم أول من عرف الاستقرار وبالتالي لا نستبعد هذه الفرضية .

بما أن كامبس اعترف بوجود المحراث الخاص بسكان شمال إفريقيا والذي وصفه على الشكل التالي[8] :" يمثل المحراث البربري إذن أداة بدائية، عبارة عن معول خشبي صلب مثبت في التربة، وهو مختلف عن المحراث القديم المصري والمحراث الشرقي الذي له مقبضان، كما يتميز عن المحراث الروماني، ولا علاقة له بالمحراث القرطاجي، ويبدو أنه ظهر في الحوض الغربي للبحر المتوسط منذ العصر البرونزي، ولا يستبعد أن يكون من أصل محلي ..."، ونعتبر هذا الوصف من طرف احد أكثر المؤرخين المحدثين تعلقا بنظرية العجز التي ألبسوها للفرد الشمال إفريقي، اعترافا صريحا لتمكن الإنسان الإفريقي من خدمة أرضه منذ أقدم العصور ولم يكن نباتيا بحتا كما يحلو لجليان(شارل أندري) وصفه

ولنا في تجهيزات الري وإصلاح الأراضي في منطقة تازبانت خير دليل على ما وصل إليه الإنسان الإفريقي مما يفند كل ما ذهب إليه المؤرخون في جعل نظام السقاية والري واستصلاح الأراضي أنه ذكاء آت من وراء البحار، الأمر الذي يؤكده شوفالي بقوله[9]: "إن منشئات الرَي التي نظمها الرومان وطوروها هي منشئات ذات أصل محلي"، وهي نفس الشهادة التي قدمها كامبس عن هذا التقدم الذي حققه الإنسان في تازبانت، وكامل مناطق شمال إفريقيا في العهد القديم، الأمر الذي استخلصناه من خلال الشواهد الأدبية والأثرية التي أرّخت لهذا الإنجاز المهم في الحضارة البشرية؛ فالرحى المكتشفة بالساحل الوهراني، ورسوم مغارة الشافية، وجداريات الطاسيلي انتهاء بإصلاحات ومدرجات تازبانت التي أكدتها الصور

الجوية في العهد الفرنسي خير دليل قائم على قدم الزراعة في شمال إفريقيا، ولا يشوبنا أي شك أنها ساعدت الشعوب القادمة لاحقا إلى شمال إفريقيا في الاستقرار وتطوير الزراعة، ومنهم الشعب القرطاجي.

2-الاقتصاد القرطاجي:

بالرغم من الصورة النمطية التي خلدت عن تاريخ القرطاجيين كونهم بحارة محترفين وتجار ذوي شهرة تخطت حدود بلادهم، بحيث كانوا وسطاء بين شعوب البحر المتوسط؛ إذ سمحت لهم خبرتهم في الإبحار وسفنهم المتقدمة من تنفيذ مهمة نقل السلع بين بلدان المطلة على البحر المتوسط وجزره وذلك بنجاح كبير، غير أن هذه الخاصية التي ميزت النشاط الاقتصادي القرطاجي تغيرت مع الوقت نتيجة للظروف الأساسية التي عرفتها المنطقة، والمتمثلة في فقدان القرطاجيون لنفوذهم على المناطق الغنية في جزر المتوسط ما أرغمهم على تنويع نشاطهم الاقتصادي والاستثمار في المجلات الأخرى كالزراعة والصناعة إلى جانب التجارة التي بقيت العمود الفقري لنشاطهم، وفيما يلي نذكر مراحل تطور كل هذه المجالات.

أ-المجال الفلاحي:

اهتم القرطاجيون بالنشاط الفلاحي بكل فروعه ومنتجاته التي ساعدتهم على الوصول إلى الاكتفاء الذاتي خاصة بعدما فقدوا المنتجات المتأتية من بعض جزر البحر المتوسط كصقلية وسردينية، ومن أهم هذه النشاطات الفلاحية التي طوَرها القرطاجيون ما يلي:

-الزراعة: إن احتفاظ قرطاجة بأحد أعظم علماء الزراعة في التاريخ القديم والمتمثل في ماغون الذي ألف كتاب يحتوي على ثمانية وعشرين مجلدا[10]، بحيث ترجم إلى عدة لغات منها اللاتينية والرومانية، خير دليل على الواقع الزراعي الذي وصلت إليه قرطاجة، فتكريم مجلس الشيوخ الروماني لها العالم الزراعي الكبير، وطلبه ترجمة الكتاب أحسن اعتراف للتطور والمعالجة العلمية للأمور الزراعية من طرف أعداء الأمس، واعتبر هذا الكتاب غنيمة حرب بعد سقوط قرطاجة [11].

وتشير كل الدلائل إلى أن ماغون عاش في أواخر القرن الثالث وبداية القرن الثاني قبل الميلاد، وهي الفترة التي تقترن بتطور الفلاحة والزراعة في قرطاجة، ومهما كان من أمر فإن المعروف عن القرطاجيين أنهم اهتموا بالزراعة والفلاحة في الفترة الأولى من وجودهم في المنطقة، ويتفق المختصين على سنة 480 ق.م [12] التي توافق هزيمة القرطاجيين في معركة هميرا ضد الإغريق كبداية للاستقلال في المجال الزراعي وهذا راجع إلى فقدان القرطاجيين للكثير من الأسواق في منطقة البحر المتوسط بعد سيطرة الإغريق، إذ معروف عنهم أنهم محترفي التجارة ، ويذكر الدكتور بشاري أن الزراعة القرطاجية كانت تتطور كلما تناقصت مساحة الإمبراطورية، ويحدثنا روستفتزف كيف أن القرطاجيين كانوا يجلبون القمح الصقلي، وقد منعوا زراعة الزيتون والكروم فيها على حساب القمح.

وتؤكد بعض الإشارات التاريخية على وجود مستعمرات فلاحية، خاصة في المناطق الساحلية التي خُصصت لزراعة الخضر والفواكه[13]، وكذا الأشجار المثمرة وتربية المواشي ويذكر المؤرخون أيضا قيام القرطاجيين بتصدير النبيذ وزيت الزيتون إلى الأسواق اليونانية وإلى إيطاليا [14]، وهذا دليل على فائض الإنتاج في هذه المواد الغذائية التي كانت تنتشر بكثرة، بالإضافة إلى الخضر والفواكه التي كانت تنافس المنتوج الإيطالي في عقر داره.

وهذا ليس بالأمر الغريب عن الشعب القرطاجي إذ عرفنا أنه منحدر من بلاد الفينيقيين الذين يعتبرهم غزال بفلاحين ممتازين، وبالطبع فإن هذا النجاح بالإضافة إلى المعرفة التي يتصف بها سكان قرطاجة، فإن خصوبة الأراضي التي سيطروا عليها في شمال وجنوب شرق تونس حاليا بحيث يشهد لها المؤرخون بذلك منذ القدم، وخاصة في سهل مجردة وخليج سرت الصغرى التي حدثنا عنها هيرودوت[15]، وأرسطو الذي يروي كيف أن القرطاجيين يمنعون أعالي سردينيا كل زراعة لأراضيهم من شدة الغيرة على خصوبة الأراضي الإفريقية [16].

وكما أسبق ذكره فإن القرطاجيين اعتنوا بالتوسع الزراعي في إفريقيا منذ أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، وأكثر الشواهد التاريخية على ذلك حملة أغاتوكليس الذي اندهش لحالة التطور الفلاحي[17]، الذي وجده في المزارع القرطاجية من أشجار الزيتون والكروم ومراعي الأبقار والأغنام على مد البصر، كما تحدثنا حملة أخرى قادها الجيش الروماني بعد نصف قرن من حملة أغاتوكليس في منطقة كلوبا (Clupea) عن الغنائم الكثيرة التي تحصلوا عليها من المزارع القرطاجية وكذلك العبيد الذين بلا شك كانوا يعملون في تلك المزارع[18].

ولم يختلف وصف المؤرخ ديودور الصقلي لهذه المنطقة إذ يقول [19]:"عبر الجيش مناطق مكتظة بالبساتين والمراعي التي تتخللها المجاري المائية، والفيلات الريفية الراقية التي تعبر عن ثراء أهاليها كدليل على الاستقرار والسلام الطويل الذي عرفته المنطقة"، وربما أشهر ما وصلنا إليه في التاريخ القديم عن دهشة الأجانب بما وصلت إليه الفلاحة القرطاجية، هو ما حدث مع أحد رجال مجلس الشيوخ الروماني كاتوا الكبير حين قام بجولة إلى منطقة شمال إفريقيا قبيل الحرب البونية الثالثة، في محاولة مع الوفد الموافق له في التوسط لحل الخلاف القائم بين القرطاجيين والملك النوميدي ماسنيسا[20]، وبعد عودته إلى روما حمل حبَات تين في يده وأمام مجلس الشيوخ خاطبهم بتصريحه الشهير "يجب أن تُدمر قرطاج "[21]، قائلا وهو ينظر إلى حبات التين تلك ويضيف:" هذه الخيرات على بعد ثلاثة أيام منكم فقط"، فانقسم المؤرخون في تفسير هذا الموقف لكاتون بين من يعتبر ندائه لتدمير قرطاجة طمعا في خيراتها، ومن اعتبر ذلك خوفا من قوتها التي استرجعتها بعد الحرب البونية الثانية.

وعلى كل حال فان القرطاجيين بخلاف بعض الأشجار المثمرة مثل الرمان والتفاح التي أتوا بها إلى شمال إفريقيا، فإن مساهمتهم في المجال الفلاحي ترتكز أكثر في تطوير تقنيات الإنتاج وتطعيم الأشجار إلى كثرة الإنتاج وتنوعه وهو أهم سمَات الاقتصاد الفلاحي فيها. وفيما يلي أهم هذه المنتجات الزراعية:

-الحبوب: تُجمع المصادر الأدبية التي وصلتنا أن اهتمام القرطاجيين بزراعة الأرض عامة والحبوب من القمح والشعير خاصة بدأ بعد الهزيمة التي زلزلت أوصال الأمة القرطاجية في معركة هميرا في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد وبالتقريب في سنة 480 قبل الميلاد، وقد أشار هيرودوت إلى المزارعين الذين كانوا يسكنون في غرب نهر التريطون، كما أشار غزال [22] الذي نقل معلوماته عن ايميل هيكاتي (Hécatée De Millet) إلى آكلي القمح في المنطقة كمزارعين، ونفهم من خلال منع قرطاجة لسكان جزيرتي صقلية وسردينيا غراصة الأشجار المثمرة أن القرطاجيين كانوا يتزودون من استيراد القمح من هذه المناطق، وبسبب فقدانهم لهذا المجال الحيوي خلال الحرب البونية الأولى تضاعفت المساحات الزراعية المخصصة للقمح في إفريقيا بحيث تذهب المصادر الأدبية إلى احتلال هذه المناطق بالقوة، وهو ما دفع السكان الليبيين إلى الانتفاضة ضدهم فتشير التقديرات إلى أن المزارع القرطاجية المخصصة للزراعة كانت كبيرة ما دام أنها كانت تستخدم فيها يد عاملة كثيرة من العبيد، ولعل ما ذكره المؤرخ الإغريقي تيت ليفيوس (Tite live) عن تزويد قرطاجة لروما بكميات معتبرة من القمح في سنة 203 ق.م[23]، لدليل على الانتشار الوافر لهذا المنتج الحيوي بحيث قدَر الدكتور بشاري الكمية المصدرة لروما بـــ: 43770 هكتولتر من القمح و 26000 هكتولتر من الشعير[24].

كما تؤكد المصادر الأدبية أن القرطاجيين قاموا بتموين أهالي سراقوسة(Syracause)[25] أثناء حصارهم من طرف (Macellus) إبان الحرب البونية الثانية، ونفس الأمر بالنسبة للرومان الذين التجئوا إلى القمح القرطاجي أثناء حروبهم ضد مملكة أنطيوش في الشرق، كما تزَودوا بالقمح والشعير القرطاجي في أثناء حربهم ضد الفرس، والمؤكد أن تزويد القرطاجيين لشعوب أخرى بهذه المادة الحيوية يدل على فائض إنتاج القمح والشعير في المزارع القرطاجية، وقد دفعت بلين الكبير بتسمية إفريقيا بإمبراطورية الحبوب، لكننا نلاحظ أن هذا التموين جاء في فترة خاصة من تاريخ العلاقات بين قرطاجة وجيرانها بحيث توافقت مع فترة الحرب البونية الثانية التي أرغمت قرطاجة ضمن اتفاقيته على تموين الجيش الروماني بالقمح، أو سعيا وراء مصلحة سياسية في حالة تموين أهالي سراقوسة.

والجدير بالذكر أنه علينا عدم إهمال الكميات الكبيرة التي كانت تتحصل عليها قرطاجة من الضرائب التي سماها غزال[26] بالضريبة السنوية على الأرض، والتي كانت تتم في فترة الحصاد، ويدفعها الأهالي، وكانت بكميات كبيرة بحيث تكفي لغذاء سكان العاصمة القرطاجية حسب المؤرخ نفسه[27]، نظرا للنسبة الكبيرة من الضرائب التي كان يدفعها الأهالي والبالغة ربع المنتوج 4/1 لم يتوان بعض المؤرخين باعتبار هؤلاء الأهالي بالعبيد، وأنهم كانوا في حالة الرِّق ولم يكونوا أبدا من الأحرار، وهو ما يؤكده رستوفتزف[28]، الذي يرى أن المساحات الشاسعة من الأراضي كانت تفلحها عصب العبيد كما أكد أن اغلب منتجات هذه المزارع كانت من الحبوب، وهذا لا ينفي وجود صغار الملاك من الأحرار الأهالي.

- الأشجار المثمرة:

تؤكد كل الإشارات التاريخية أن القرطاجيين اهتموا كثيرا بزراعة الأشجار المثمرة على حساب زراعة الحبوب من قمح وشعير، خاصة في الفترة الأولى من تاريخهم، ويعود سبب ذلك إما لوفرة المنتوج من القمح في مستعمراتهم في صقلية وسردينيا التي اعتبرها رستوفتزف [29] ذات إنتاج كبير بالدرجة التي كانت تموَن بلاد قرطاجة وأسواق الإغريق وحتى إيطاليا، وإما لمعرفة سكان قرطاجة العلمية وكفاءتهم في الزراعة الشجرية، ولا نستبعد الاهتمام المتزايد للقرطاجيين بزراعة الأشجار المثمرة واحتكارها راجع لقيمتها التجارية والصناعية، ومهما يكون فإن كتاب العالم القرطاجي ماغون قد ركز كثيرا على الزراعة الشجرية، وهو ربما ما يترك لنا الاعتقاد بخصوصية هذه الزراعة عندهم.

ومن أهم زراعتهم الشجرية نذكر ما يلي:

-الزيتون:

عرف سكان قرطاجة زراعة أشجار الزيتون منذ فترة بعيدة إذ يخبرنا هيرودوت [30] أن زراعة هذه الأشجار كانت واسعة الانتشار في منطقة جنوب قرطاجة وجزيرة قرقنة، وهي نفس ملاحظة ديودور الصقلي الذي حدثنا عن هذه الشجرة في شبه جزيرة رأس بونة، كما حدثنا بوليبوس عن جيش حنبعل الذي شغّل جنوده في زراعة أشجار الزيتون قبيل معركة زاما في منطقة شرق تونس حاليا، والمؤكد أن القرطاجيين كانوا يصدرون زيت الزيتون [31]

وزيت المائدة إلى إيطاليا في فترة ما من القرن الخامس والرابع قبل الميلاد، وإن كانت هذه الشجرة أصلية في منطقة شمال إفريقيا كما يقول كامبس فتسميتها بالمحلية تؤكد لنا ذلك. وإلى اليوم لا زلنا نسمي الزيتون البري باسم "أزبوج (Azebouj") والزيتون المطعم "أزمور(Azemmour)"، هذه التسمية التي أكدت عليها كل المصادر الأدبية قديما وحديثا، حتى وإن حاول البعض تحويل هذه التسمية لأصول أخرى[32].

ويذكر لنا أبيان (Appien) حادثة استيلاء جنود الجنرال سكبيو الإميلي[33]، على إحدى المنازل الريفية أثناء عملية حصار قرطاجة، وتبين تركيبة المنزل أنه كان مكون من جزئين، الجزء الأول هو بيت للسكن، وفيه حمام وبئر، أما الجزء الثاني فيتكون من معصرة الزيتون، وجرَة كبيرة لخزن المؤن، وهو خير دليل على الاهتمام الشخصي بهذه الصناعة، وعلى وجود الصناعة العائلية لزيت الزيتون في المنطقة التي كانت تابعة لقرطاجة، الأمر الذي أكدت عليه أيضا كامبس فابرا[34] التي خصصت كتابا كاملا لزراعة الزيتون في شمال إفريقيا، وحسب المؤرخة فإن الزيتون رغم وجوده في المنطقة إلا أنه عرف تطورا كبيرا على يد القرطاجيين، وهو ما يستدل به أيضا من خلال حديث ديودور الصقلي [35] عن مزارع الزيتون النامية التي مرّ بها حديث أغاثوكاليس سنة 310 ق.م.

الملاحظ إذن أن تمكن القرطاجيين من زراعة الزيتون واستخراج زيت الزيتون أمر تؤكده معظم المصادر الأدبية، التي اعتمدت في معظم معلوماتها على ما جاء في كتاب ماغون فيما يخص زراعة الزيتون وتطعيمها، وما دام أن هذا العالم تمكن من كتابة كل هذه المعلومات على هذه الشجرة فهذا يظهر لنا بوضوح، مدى تطور هذه الزراعة عن مواطنيه القرطاجيين، والواضح من خلال تحليل كامبس فابرا وغزال أن المشكل الذي عانت منه زراعة الزيتون في قرطاجة هو صغر المساحة المخصصة لها، وربما هو ما سبّب لها عجز في إنتاج هذه المادة في فترة ما من تاريخها بحيث أجبرها على استيراد الزيت من صقلية [36]، أما عن وفرة الإنتاج فمعظم المختصين[37] يقرَون نقص المعلومات الخاصة عن هذه المادة إلا ما ذكره بلين الكبير من أن مردود الشجرة الواحدة الذي حسبه قد بلغ حوالي 327 كلغم[38].

-الكروم والأشجار المثمرة الأخرى:

عرف القرطاجيون زراعة الكروم منذ القدم، ويبرز لنا ذلك من خلال حديث رستوفتزف عن تصدير القرطاجيين للنبيذ إلى إيطاليا، ونفسه ماغون أعطى أهمية خاصة لهذه الشجرة التي حدثنا بالتفصيل عن طريقة زراعتها والاعتناء بها[39]، ورغم استهلاك العنب بشكله الطبيعي إلا أن أهمية الكروم تكمن في صناعة النبيذ التي عرفت رواجا في أسواق المتوسط قديما إذ اعتبرت مادة واسعة الاستهلاك خاصة بين أفراد الشعب القرطاجي، هذا النبيذ المعروف باسم (Passam) كان ذو شهرة حسب قول بلين الذي وصف لنا كيفية تحضيره من البداية إلى النهاية، بحيث صدر القرطاجيون نبيذهم إلى مختلف الشعوب المتوسطية كجزر البليار وبلاد الإغريق، كما استخدموه في عملية المقايضة بشجرة السلفيون على حسب قول سترابون، ومن خلال أثار الجدار التي اكتشفت في صقلية[40]، يظهر لنا مدى توفر النبيذ القرطاجي في المنطقة، وبعملية منطقية فهذا يدل على كثرة زراعة الكروم في بلاد القرطاجيين، ومع مرور الوقت عرفت كيف تتخلص من المنافسة الأجنبية في إنتاج هذه المادة وتحسين نوعيتها بالطرق العلمية .

وفي نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، وفي أثناء غزو أغاثوكليس المنطقة كانت معظم الأراضي المزروعة من الكروم، وفي نهاية القرن الأول ق.م حدثنا صاحب الحرب الإفريقية على الجنود الرومان الذين استولوا على كميات كبيرة من الخمر[41] في المنطقة التي استولى عليها قيصر في حربه الإفريقية كما لم تخلوا العملة المحلية من نقوش عناقيد العنب وكذا الكثير من النقوش الأثرية البونيقية التي خلدت هذه الشجرة [42].

إضافة إلى زراعة الزيتون والكروم التي كانت تنافس القمح والشعير في قيمتها الاقتصادية والغذائية؛ فقد امتهن القرطاجيون زراعة الأشجار المثمرة المتعددة أصلية كانت مثل التين أو أتوا بها من مناطق أخرى كالتفاح و الرمان، فعرف التين القرطاجي بشهرته، خاصة إذا علمنا أن القرطاجيين قد طوروه بالتطعيم ليصبح ذات جودة ممتازة، ولكنه عرف أكثر لارتباطه بحادثة كاتوا التي تحدثنا عنها سابقا والتي أشار فيها إلى ضرورة تدمير قرطاجة، وهو

يحمل حبات التين في يده أمام أعضاء مجلس الشيوخ، والتي سماها في كتابه ("Ficus Africus") [43] بحيث طلب زراعتها في الأراضي الإيطالية، أما فيما يخص أشهر المنتجات الشرقية نذكر الرّمان والتفاح الذي تحدث عنه بلين كثمرة أدخلها الفينيقيون إلى شمال إفريقيا، والتي تدعى (Mala Punica)[44] أو التفاح البوني، والرّمان الذي أطلق عليه الاسم اللاتيني (Mulla Granala)[45].

وعرفت هذه الثمار برواجها وجودتها في كل أسواق البحر المتوسط حيت أن القرطاجيين خلدوها في نقوش أثرية، كما تغنى بها الشعراء الإيطاليون وعلى ما يبدوا من شعر مارسمال فقد تم زرع هذه الأشجار في إيطاليا أو على الأقل هذا ما يوحي إليه شعره إذ يقول[46]: "أرسل لك الرّمان من حديقتي، لا تحتاج إلى إنتاج ليبيا "، كما عرف القرطاجيون اللّوز والأجاص والنخيل[47]، كما ظهرت شجرة التمر في العملة المحلية[48]، و إن كان تواجدها في الأراضي القرطاجية في تونس الحالية أمر مستبعد نظرا لنمو هذه الشجرة في مناخ خاص بها في واحات الصحراء إلا أنّ المنطقة الساحلية لخليج سرت التي فيها رمال الصحراء تلامس البحر و بالتالي من المتوقع أن تكون الواحات قريبة من الساحل، وهو ما تحدث عنه هيرودوت.

أما زراعة الخضر بأنواعها فقد عرفت انتشارا في المناطق الساحلية كما هو الحال في أيامنا هذه، نظرا لملائمة المناخ والأراضي الخصبة التي تحوز عليها المنطقة.

3-تربية الماشية:

يعتبر النشاط الرعوي إحدى أقدم الأنشطة التي مارسها البشر عبر التاريخ، إذ لا تخلوا جداريات الطاسيلي من مشاهد الرعاة وهم يسوقون قطعان من الماشية، إذ يعود استئناس الحيوان إلى فترات قديمة جدا سبقت النشاط الزراعي، وقد حدثنا هيرودوت عن الشعب الليبي في شرق بحيرة تريطون الذين كانوا من الرعاة الرحل الذين يتنقلون بمواشيهم من الساحل إلى المناطق الداخلية حسب المواسم، وهو ما أكده سترابون في وصفه لسكان المنطقة إذ قال[49] : أغلب الأراضي التي يسكنها هؤلاء خصبة ورغم ذلك فإن أكثرهم مازالوا يعيشون حتى هذا الوقت حياة البدو الرعاة"، وإن كان حديث

سترابون على مناطق خارجة عن مناطق سيطرة قرطاجة فلا نستبعد نفس نمط المشيعة لهذه المنطقة.

ومما ذكره المؤرخون أغاتوكليس الذي ذكر لنا ما رآه من مراعي وأبقار وغنم في المنطقة التي نزل فيها في الأراضي القرطاجية، أما بوليبيوس فقد قال[50]:"إ ن كثرة الخيول والأبقار والأغنام والماعز في هذه البلاد تجعلاني أشك في وجود مثيل لها في بقية الأرض "، ويرجع سبب ذلك إلى أن الليبيين يمارسون تربية المواشي أكثر من اعتنائهم بالزراعة وربما السبب في ذلك واضح حسب المؤرخ بشاري أن الثروة الحيوانية ثروة مضمونة، إذ صاحبها بإمكانه التحرك والتنقل من منطقة لأخرى حسب المعطيات المتغيرة كالجفاف وعدم الاستقرار.

إلى جانب القطعان التقليدية المعروفة بين سكان المنطقة ومعظم المناطق المعتدلة والحارة، والمتمثلة في الأبقار والماعز والغنم؛ فقد اعتنى القرطاجيون بتربية الخيل بالرغم من اعتقاد غزال أن في بداية الأمر لم يكونوا كذلك، وربما هذا راجع إلى كون القرطاجيون لم يكونوا محاربين، وإنما كانوا تجارا، إلا أن الحروب المتتالية التي خاضتها قرطاجة غيّرت من هذه الوضعية إذ أصبحوا يملكون خيول كثيرة أشهرها الحصان البربري، كما ذكر لنا ماغون البغال التي كانت تستغل في نقل الأحمال الثقيلة وكذلك الحمير، أما الجمال فلم يتم استعمالها في المنطقة إلا في فترة متأخرة جدا، و يعتقد أنه دخل إلى المنطقة من جهة النيل[51]، في نهاية القرن الأول ق.م، وتحدثنا المصادر عن استيلاء قوات قيصر على اثنتي وعشرين جملا، وهو عدد قليل جدا مما يظهر الصفة الجانبية التي يتمتع بها هذا الحيوان في المنطقة، وبالتالي نستبعد تربيته بكثرة من طرف القرطاجيين باستثناء استعماله في القوافل الصحراوية التي عرفتها قرطاجة بعد أن تخلصت من وساطة السكان المحليين في التجارة مع سكان المناطق الصحراوية.

2-المجال الصناعي:

لم يهتم كثيرا القرطاجيون بالصناعة المحلية، وربما هذا راجع إلى كونهم تجار أكثر منهم حرفيين، فمنذ أقدم الأزمنة كانوا يحصلون على حاجياتهم من الموانئ البعيدة وذلك بمبادلة مالهم من سلع بالمنتجات الصناعية الجاهزة، خاصة أنهم قاموا بدور الوسيط التجاري بين كل حضارات البحر المتوسط، غير أن النقوش الأثرية[52] تركت لنا صور تخلد الصناعة القرطاجية التي ازدهرت فيها فنون حرفية عدة، وإن لم تكن في أيدي الأرستقراطية مثل ما هو حال التجارة والزراعة، وإذ سلمنا بحكم غزال [53] فإن الصناعة القرطاجية كانت في الحضيض، وكان برهانه على ذلك الأثاث الجنائزي الذي اكتشف في مقابرهم، والذي يعود أصله إلى بلاد الإغريق، وكانت ذا نوعية رخيصة، إضافة إلى ذلك فقد برع كثيرا القرطاجيون في صناعة السفن وهو أمر منطقي باعتبارهم بحارة منذ القدم [54].

وتؤكد لنا المصادر التاريخية أن أغلبية اليد العاملة كانوا من الأحرار الذين يملكون ورشات خاصة، وإن لم يستبعد استعمال العبيد في الصناعة باعتبار أن القرطاجيون كانوا تجارا، وبالتالي لا يمكن لهم البقاء طوال الوقت في ورشاتهم حسب تعبير غزال.

وأما عن الصناعة النسيجية فتنقصنا عنها الكثير من المعلومات، وهذا راجع إلى عدم مقاومتها لعامل الزمن؛ فإن النقوش الأثرية احتفظت لنا بالأدوات المستعملة في حرفة النجارة كالمطرقة والمنقار وأدوات أخرى، كما احتفظت المقابر بالأثاث الجنائزي الذي يؤكد هذا، وذكر لنا غزال [55] التطور الذي وصلت إليه مراكبهم كخير دليل على ازدهار صناعة السفن وربما كانت هذه الورشات الخاصة بالسفن وصناعة الأسلحة تابعة للدول[56]، ونعتقد أنه حكم اقرب إلى المنطق بسبب حساسية هذا المجال من جهة وبسبب الإمكانيات الكبيرة التي تتطلبها مثل هكذا صناعة، والتي تفوق قدرات الفرد البسيط، فيما تركت الورشات التي تهتم بالصناعات اليدوية البسيطة للأفراد البسطاء، ويجمع كل المؤرخون على أن الصناعة الفخارية كانت الأكثر تطورا في قرطاجة وكانت مخلفات هذه الصناعة إما في القبور أو في مختلف موانئ المتوسط شاهدة

على نوعيتها وكثرتها، وتظهر الآثار التي تعود إلى الفترة الأخيرة من العهد القرطاجي حسب تقدير غزال المجهود الكبير الذي بذله السكان في هذا المجال .

وكانت الصناعة التعدينية ذات شأن كبير في قرطاجة رغم قلة المعادن المحلية فيها؛ إذ برع القرطاجيون في الصناعة التحويلية التي تزودها مختلف مناجم إسبانيا من حديد ونحاس، وكذا معادن الجزر الإيطالية مثل سردينيا وصقلية[57]، فحولت هذه المعادن إلى أسلحة وأواني منزلية، وبلا شك إلى أدوات ومعادن لتثبيت السفن، كما اشتهر القرطاجيون على غرار أسلافهم بالصباغة الأرجوانية التي عرفت رواجا كبيرا في المناطق الساحلية، وفي غالب الأحيان كانت هذه موجهة للتجارة الخارجية ولنا أن نشير أن سبب انتشارها في المناطق الساحلية يعود إلى كون المادة الأولية التي تستخدم في هذه الصناعة هي حيوان المريق (Murex) البحري على حد قول بشاري[58].

وأما الصناعة الزجاجية والحلي فكانت في قمة الإبداع بحيث زود القرطاجيون منازلهم بالأواني الزجاجية والقارورات المخصصة للعطور والأواني التجميلية، في حين عرفت النساء القرطاجيات الحليّ بشتى أنواعه، كما لم يكن الرجال بمنأى منها إذ كانوا يتزينون بالحلي، وبالتالي شملت كل حليّ التزيين التي يمكن للمرء تصورها من قلادات، أساور وخواتم [59]، ولنا أن نشير إلى حادثة تبرع النساء القرطاجيات بحليهن لصناعة الأسلحة أواخر أيام الدولة القرطاجية في سنة 146 ق.م فكان ذلك خير دليل على الكم الهائل الموجود من هذه المعادن الثمينة في المنازل القرطاجية.

3-المجال التجاري:

كان القرطاجيون أسياد التجارة في البحر المتوسط لمدة زمنية طويلة، وتمكنوا من ذلك بسبب محاربتهم لكل أشكال المنافسة من الدول المجاورة بالقوة أو بالاتفاقيات، ومن أهمها تلك التي عقدت مع الرومان في سنة 509 ق.م[60]، وأخرى في سنة 348 ق.م، التي منعت الرومان من ممارسة التجارة في بعض مناطق المتوسط؛ فكانت التجارة بالنسبة للقرطاجيين سياسة دولة كاملة الأركان، وليست اجتهاد أفراد، فحاولوا إيجاد الأسواق لسلعهم بكل السبل وفي كل المناطق، وهو ما تظهره سياسة زرع موانئها في

مختلف مناطق المتوسط التي تحولت إلى مستعمرات مع الزمن، والتي عادت بفائدة عظيمة بالنسبة للتجار القرطاجيين[61] فأصبحوا سُعَّات بين شعوب المنطقة، ولا تخلوا أية محطة أو ميناء في كل المتوسط إلا ونجد فيها مراكبهم.

وتعددت المواد التي كان التجار الفينيقيين يحملونها على ظهور مراكبهم ذهابا وإيابا وإن كان من المعروف استيرادهم للمواد الأولية المعدنية من اسبانيا وجزر المتوسط، وكذلك حصولهم على المواد الثمينة من الذهب والأحجار الكريمة من المناطق الداخلية والتي تصلهم عبر قوافل الصحراء بواسطة قبائل النسامونس؛ فالخشب والحبوب كانت تستورد من إفريقيا والفخار من بلاد الإغريق، وأما صادراتهم فتتمثل بصفة عامة في المواد الغذائية كالفواكه والنبيذ والتفاح وزيت الزيتون والرَمان[62] ولنا أن نشير في هذا المقام إلى الحكم القاسي الذي أصدره غزال على التجارة القرطاجية التي اعتبرها أضعف بكثير مما تبدوا في الواقع إذ قال[63]:"...يبدوا أن النصوص الأدبية بالغت في تقدير التجارة القرطاجية، ولا يجب محاولة إعادة بناء التاريخ الاقتصادي لقرطاجة بالاعتماد فقط على بعض الفخاريات التي تملأ قبورها".

الخاتمة:

من خلال هذه الدراسة المتواضعة التي تطرقنا فيها إلى النشاط التجاري في إفريقيا الشمالية قبل الاحتلال الروماني، توصلنا إلى عدة نتائج تلخص لنا مدى التطور الذي كان عليه الاقتصاد في المنطقة بصفة عامة وقرطاجة بصفة خاصة باعتبارها أنموذج هذه الدراسة، وكذا تمكن سكان المنطقة في تطوير مواردهم الاقتصادية والغذائية سمحت لهم بالانتقال من مرحلة الاكتفاء الذاتي إلى مرحلة التصدير، وهو ما يبرز لنا في تطور النشاط الصناعي والتجاري لقرطاجة في كامل مناطق المتوسط جنبا إلى جنب مع القطاع الزراعي عكس ما ذهبت إليه الكثير من المراجع الغربية التي قللت من ذكاء ونشاط الإنسان الإفريقي، واعتباره بالعاجز والمنعزل.

الهوامش:

[1] محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ من الفتح الإسلامي، المؤسّسة الجزائريّة للطباعة، الجزائر، 1995، ص116.

[2] العربي محمد عقون، الاقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2008، ص 26.

[3] صندوق ستي، الثروة الحيوانية والغطاء النباتي في الجزائر خلال العصور القديمة، رسالة ماجستير، جامعة وهران،2015، ص253.

[4] المرجع نفسه، ص253.

5[5] فتيحة فرحاتي، نوميديا من حكم الملك جايا إلى بداية الاحتلال الروماني 213 ق.م-46 ق.م. الجزائر 2007، منشورات أبيك، ص230

6–S.Gsell Histoire Ancien de L'Afrique du nord .T.1,paris libéreriez hachette. P239.

[7] فرحاتي ، المرجع السابق، ص231.

[8] غبريال كامبس، في أصول بلاد البربر، ماسنيسا وبدايات التاريخ، تر. العربي محمد عقون، نقلا عن صندوقي ستي، ص 249.

[9] شوفالي وكامبس، نقلا عن محمد العربي عقون، الاقتصاد و المجتمع في الشمال الإفريقي القديم ص28.

[10] الشادلي بورونية، قرطاج البونية، تاريخ وحضارة، مركز الشرق الجامعي، مصر 1999، ص247.

[11] بورونية، المرجع السابق، ص247.

[12] -285 م، الجزائر: 2015. دار الهدى للنّشر، ص 28. بشاري محمد حبيب، روما وزراعة المقاطعات الإفريقيّة بين 146 ق. م.

[13] S.Gsell H.A.A.N. T.04 P1

[14] روستفتزف، ترجمة زكي علي ومحمد سليم سالم، تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي ج، 1ص28.

[15] La croix-R.Africaine.1868 P409.

[16] La croix-R.Africaine 1868 P410.

[17] S.Gsell,Tome 4 P3.

[18] شنيتي محمد البشير، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الرومانيّ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 244، انظر التهميش رقم (3).

[19] S.Gsell , Tome 3 P29

[20] بشاري، المرجع السابق، ص 24؛ S.Gsell Tome 4 P4–

[21] محمد بيومي مهران، المغرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية-مصر، 1990م ص، 282.

[22] S.Gsell , Tome 4 P09.

[23] Tite live XXX.16.11، نقلا عن بشاري، المرجع السابق، ص26.

[24] La croix,Revue Africaine 1868 P414.

[25] La croix,Revue Africaine 1868 P414.

[26] S.Gsell T04 P109.

[27] Idem.

[28] رستوفتزف، المرجع السابق، ص81-82.

[29] رستوفتزف، المرجع نفسه، ص 28.

[30] Herodote , IV 195.

[31] رستوفتزف المرجع السابق، ص28.

[32] هنريات كامبس فابرا: الزيتون والزيت في افريقيا الشمالية خلال الفترة الرومانية، تعريب وتحقيق، العربي عقون، دار الهدى، الجزائر 2014 ص 19 (انظر توضيحات المترجم تهميش ص 19).

[33] بورونية، المرجع السابق، ص 252.

[34] هنريات كامبس، المرجع السابق، ص 20.

[35] المرجع نفسه، ص20.

[36] المرجع نفسه، ص21.

[37] Gsell.S.Tome 4 P29 – بشاري، المرجع السابق، ص 30.

[38] بشاري، المرجع السابق، ص30.

[39] أنظر Gsell T04، ص 23 وما يليه.

[40] أنظر : Gsell T04 p26

[41] بشاري، المرجع السابق، ص 23.

[42] المرجع نفسه، ص 29.

[43] .Gsell H.A.AN.T04 P31

[44] بوروينة، المرجع السابق، ص253.

[45] بشاري، المرجع السابق، ص 32.

[46] المرجع نفسه، ص 31.

[47] حارش، المرجع السابق، ص88.

[48] S.Gsell P32 T04

[49] سترابون، الجغرافيا ،الكتاب السابع عشر-الفصل الأول، ترجمة: محمد المبروك الدويب، منشورات جامعة قاريونس ،ليبيا 2003 ف07.

[50] يوليوس I-29-7 نقلا عن قزال ،مجلد 4، ص، 41.

[51] فرحاتي، المرجع السابق، ص228

[52] حارش، المرجع السابق، ص88

[53] S.Gsell.H.A.A.N.T04 P167

[54] حارش، المرجع السابق، ص89.

[55] .S.Gsell T04 P 56

[56] بشاري، المرجع السابق، ص 35.

[57] المرجع نفسه، ص35.

[58] المرجع نفسه، ص 37.

[59] للمزيد أنظر S.Gsell.T04.

[60] حارش، المرجع السابق، ص85.

[61] .S.Gsell H.A.A.N T04 P169

[62] حارش، المرجع السابق، ص، 87.

[63] S.Gsell H.A.A.N T04. P169.